مصانع العقل

«تمامًا كما أن مصلحة العِرق أهم من مصلحة الفرد، كذلك فإن مصلحة الكون أولى من مصلحة أي مخلوق معين».

مطرقة الساحرات Malleus Maleficarum

Malleus Maleficarum

اقرأ (المجتمع) بدل (الكون) في الكتابة المنقوشة أعلاه، تتكونْ لديك عبارة مقتضبة عن الشمولية، تعود إلى القرن الخامس عشر في أوروبا. الادعاء بأن بقاء العرق أو النوع يسوغ أي مقدار من المعاناة الفردية هو نمط اجتماعي من العواقبية، يقوم على مبدأ أن الغاية تبرر الوسيلة. من المشهور أن هذه الفكرة ترتبط بمفكر عصر النهضة نيكولو ماكيافيلي Niccolo Machiavelli (1469–1527م)، ولكن على الرغم من أنه قد اُستنكِر بشدة بسببها، فإنه لم يكن أول المروجين لها[1]. كلمة (الشمولية)، بالمقابل، زيَّنت اللغة الإنكليزية فقط منذ عام 1926م (حسب قاموس أوكسفورد للغة الإنكليزية)، ومع ذلك فإن العواقبية وجدت أقسى تعبير عنها لدى أنصار التفكير الشمولي؛ وهم أعظم الحكام شمولية في القرن العشرين هتلر Hitler وستالين Stalin وماو Mao.

أعطانا ذلك القرن مصطلح (غسيل الدماغ)، وهو همسة أمل للحكام الشموليين في كل مكان، إذ حمل وعدًا بأنه يمكن إيجاد الأساليب الموثوقة العلمية لتعزيز السيطرة الكاملة على عقول البشر، ولكن قبل أن تتوافر التكنولوجيا الحديثة بكثير، فإن كبار كهنة السيطرة كانوا يستخدمون طيفًا من التقنيات؛ من البلاغة إلى التعذيب، لفرض مذاهبهم الفكرية المختلفة على الآخرين. لثقتهم بأنهم وحدهم لديهم مفتاح الخير المطلق الذي كان مطلوبًا من الناس اتباعه –سواء من الله، أو أرسطو Aristotle، أو قوى التاريخ، أو بعض رموز السيطرة الأخرى– رسمت شخصيات التأثير هذه شكل مناخ الأفكار التي يعيشون فيها، وكما حاججت من قبل؛ فإن محاولاتهم لتغيير المعتقد ما يزال صداها إلى اليوم.

ركَّز معظم بحثنا حتى الآن فيما أشرت إليه بغسيل الدماغ بالقوة؛ أي النوع الذي يتوقع المرء أن يجده في الطوائف الدينية ومعسكرات الاعتقال، ولكن ناقشت أيضًا شكلًا أكثر تدرُّجًا من التلاعب؛ وهو غسيل الدماغ بالتسلل الذي تستخدمه الحكومات عادة لنشر أفكارها التي تأمل بها أن تتحكم في المواطنين. ولفهم غسيل الدماغ بالتسلل، يتعين علينا أن نفهم سبب كون الأفكار مهمة بالنسبة إلى أولئك الذين يهيمنون على المجتمعات، وكيف تنتشر الأفكار، ولماذا هي فاعلة جدًّا. تشكل هذه الأسئلة نقطة تركيز هذا الفصل.

أفكار معدية

«كلما عظمت الكذبة، كبرت فرصتها في أن تُصدَّق».

أدولف هتلر Adolf Hitler، **كفاحي**

Adolf Hitler, Mein Kampf

يقارن مبدأ التطور الثقافي الذي بحثناه في الفصل الثالث الأفكار بالفيروسات، ويؤكد قابلية البشر للعدوى الفكرية، وهذا العلم هو تعبير جديد عن تشبيه قديم للأفكار بالأمراض، وهو يكمِّل التشبيه، الذي بحثناه في الفصل الرابع، لغسيل الدماغ بالشفاء. يصف القرآن الكريم على سبيل المثال الكافرين بأن في قلوبهم مرضًا ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: 10]. من المؤكد أن الجنس البشري كان يخاف دائمًا من المرض[2]، ولا تزال المجتمعات الحديثة تخشى الأمراض الإنتانية خاصة، حتى إن الجائحات التي تقتل عددًا قليلًا نسبيًّا من الناس يمكن أن تصبح عناوين إخبارية رئيسة في جميع أرجاء العالم[3]. مع أن التطور يقدم أمثلة على التعايش المفيد بين البشر والعضويات المجهرية، فإن الجراثيم المفيدة في أمعائنا لا تحظى بالشعبية الإعلامية التي ينالها أقرباؤها من الجراثيم القاتلة، لذلك فإن مفهوم العدوى يبقى -بصورة عامة- مفهوم سلبي. وعليه؛ فإن تشبيه (الفكرة مثل العدوى)، حتى في شكلها الحيادي في علم التطور الثقافي، يبقى حاملًا لإيحاءات انتقاصية. تكون الميميات التي تصيبنا بالعدوى (ذكرنا سابقًا الاستعارة الجينية للانتقال الثقافي التي تظهر الأفكار بوصفها وحدات (ميميات) memes يمكنها مضاعفة نفسها والانتقال عن طريق التقليد من دماغ إلى آخر، صفحة 57)، والمرض في قلوبنا، في كثير من الأحيان أفكارًا لا يتفق معها الأشخاص الذين يبحثون فيها، والدين مثال رئيس على الميميات، حسب الإلحاديين الذين جاؤوا بمصطلح علم

التطـور الثقافـي، وعدم الإيمان مرض في القلب، حسـب النص المقدس لواحـد من أعظم أديان العالم. هذا مدهش!

يعطي تشـبيه (الفكرة مثل العدوى) بعض السلطات العلمية طريقة لتمويه المذهب الفكري علـى صـورة علم، وبعض السـلطات الدينيـة طريقة لتمويه الديـن على صورة حقيقـة، ولكنه يفيد أيضًا في تأكيد أهمية الأفكار في الثقافة البشـرية. ليسـت المفاهيم التي توجد في رؤوسنا مجرد رسوم عابثة تصنعها خلايانا العصبية المصابة بالملل؛ فهي تؤثر في طريقة تصرفنا، وتصرفاتنا المتبادلة[4]. ومعظم الشبكات المعرفية التي تسكن في عقولنا أفكار مشتركة، صحيح أن تصريفها في الدماغ الذي تسكن فيه فريد، مثلما أنه لا توجد قطة مماثلة تمامًا لقطة أخرى، لكنها تشترك من دماغ إلى آخر بمظاهر كافية لتجعل الناس أعضاء في نوع حيواني واحد.

إحـدى الصفـات المتنوعة جدًّا في الشـبكة المعرفية هي قدرتها على الأمر بالالتزام؛ يمكن أن تصنـف بعض المعتقـدات علـى أنها (معتقـدات باهتة) وفق مـا وصفها جـون بيتجيمان John Betjeman في شعره الذي يعترض فيه على المادية التي تقدم أفكارًا جاهزة مثل الطعام الجاهز[5]، لكـن بعضهـا الآخـر قد يكون قاتلًا لمن تصيبه بالإنتان مثل أي فيروس، إن لـم يكن أكثر إذا كان حظك سيئًا بأن تشارك مصابًا بفيروس الإيبولا الرحلة الجوية على سبيل المثال، فقد لا تتعرض للعـدوى بالضـرورة؛ وحتى لـو أصبت بالعدوى فإن معدل النجاة هو نحو عشـرة فـي المئة[6]، أما لو شاركك رحلتك الجوية انتحاري يريد القيام بالتفجير نصرة لعقيدته، فإن معدل النجاة ينخفض إلى الصفر.

الأفكار تهم

«أنا أفكر إذًا أنا موجود».

رينيه ديكارت، René Descartes مقال عن المنهج

René Descartes, Discourse on the Method

الأفـكار التـي نأخذهـا من العالـم حولنـا، أو نبنيها عندما تكـوِّن الارتباطات بين الشـبكات المعرفيـة المنفصلـة سـابقًا عقـدًا فـي نسـيج غنـي حبكـه ذلـك (النـول السـحري)؛ هـو الدماغ البشـري[7]. هـذا هو النسـيج الذي قُصِصنـا منه؛ فالأفكار التـي نحملها هي جزء ممـا نحن عليه. المعتقـدات ليسـت آثارًا جانبية، ليسـت مجـرد مرافقات لعمليـة الغناء في التشـابكات العصبية؛

بل إنها في عدد ضخم من الأحيان هي التي تأخذ المبادرة، وهذا صحيح وخاصة في الأفكار الأثيرية، بقدرتها على النهل من طاقاتنا العاطفية. كما رأينا في الفصل التاسع، يمكن أن تفيد العواطف بصفتها طرقًا مختصرة، أو خطط عمل إسعافي تطغى على وظائف قوة (توقف وفكِّر) (حتى أعلى المديرين يستجيبون لإنذار الحريق). يوفر ربط عاطفة قوية بفكرة أثيرية بالفعل إنذارًا غير صحيح، فيرتكس الدماغ المتلاعب به كأنه يرتكس إلى حالة إسعافية، ليس بالتوقف والتفكير، مختارًا ببساطة أكثر أساليب الفعل وضوحًا.

كثيرًا ما يكون أسلوب الفعل ذاك هو الأسلوب الصحيح في الأحوال الراهنة؛ حين نتراجع عن النار ونهرب من الحيوانات المفترسة، لكن أسلوب الفعل قد يكون في بعض الأحيان واضحًا لأنه جُعِل واضحًا بمتلاعب أطلق الإنذار الكاذب في الأصل. يطلق فنيو التأثير إنذارات كاذبة كي يضغطوا على ضحاياهم للتصرف بطريقة معينة (قد تكون أو لا تكون في مصلحة الضحية). قبل عهد أدولف هتلر Adolf Hitler بكثير، لم يكن الناس المصابون بعدوى الفكرة الأثيرية يحاجُّون من مبدأ البساطة أن اليهود قذرون، لقد اقترحوا -وفي حالات عديدة نفَّذوا- حلولًا (للمشكلة)، كما يظهر التاريخ لمعاملة اليهود في أوروبا (ومن ضمنها إنكلترا). الادعاءات المعادية للسامية التي ألهمت النازية ادعاءاتٍ سخيفةً، مليئة بعيوب في منطقها، أو تفتقر للأدلة، أو كليهما، وقد أشارت إلى ذلك بضعة أصوات جريئة فقط في ذلك الوقت، غير أن معظم الألمان كانوا يعتقدون ما يريدون أن يعتقدوه، كانت عواطفهم معبأة مقدمًا، وكانوا متلبسين إلى حد بعيد بالشعور المعادي للسامية واسع الانتشار في مجتمعهم، بحيث إن فكرة التهود الأثيرية كانت بالنسبة إليهم ملوثة بصورة لا رجعة فيها (أكثر ما يكون بالخوف والاشمئزاز). إن بذور الدعاية النازية سقطت على أرض خصبة[8]، حتى الحجج المنطقية التي قُدِّمت بأشد قوة كانت تصارع لمقاومة التيار.

تحتاج المجتمعات دائمًا -مثل الأفراد- إلى بعض عوامل التحفيز (سواء كانت مُدرَكة أم لا) للتوقف والتفكير. إذا كان توازن التحفيز يتجه نحو عدم التوقف للتفكير، كما في ألمانيا النازية،

عندها يمكن أن تقود الفكرة الأثيرية فعلًا قويًّا حتى لو كانت الفكرة نفسها متناقضة قطعيًّا مع التجربة الشخصية؛ إذ لم يكن اليهود الألمان مخفيين، كان كثير منهم مهنيين محترمين كثيرًا؛ نظيفين، وشرفاء، وجديرين بالثقة، لكن النماذج النمطية لليهودي القذر، المريض، الجشع بمكر، كانت مترسخة بشدة، وجزءًا من الثقافة، بحيث كانت قادرة على تجاوز الأمثلة

الفردية المعاكسة. ومن ثم فإما أن يرسلوا إلى مناطق أخرى من المشهد المعرفي (صدقي دانيال Daniel ليس يهوديًّا عاديًّا)، أو أن يُتَجاهلوا ويُقلَّل الاحتكاك بهم إلى أدنى حد (باستعمال أحياء خاصة باليهود على سبيل المثال)، ومن ثم تجنب اللقاءات التي يمكن أن تتحدى الصورة النمطية. ذهب الناشطون النازيون أبعد من ذلك بكثير، خافضين مستوى الحياة إلى درجة أن اليهود لم يعودوا قادرين عل الحفاظ حتى على أقل مظاهر الاحترام، وعندما أجبروا أن يكون مظهرهم قذرًا، وقد مات كثير منهم من الأمراض، تعززت نظرة النازية إلى اليهود، وهذا ما قوى اعتقاداتهم الاضطهادية، وأدى هذا إلى حلقة مفرغة من التشديد على عدم بشرية اليهود انتهى بجرائم القتل الجماعي، وليس فقط القتل، وإنما أيضًا البحث عن النقاء الذي تطلب المحو الكامل للملوِّث باستعمال الدفن والنار.

عندما تتوافر حوافز قوية للاعتقاد بفكرة أثيرية، يمكن أن تصبح شبكاتها المعرفية قوية حتى إنها تشوه المشهد المعرفي، بتأثير انجراري يماثل ما يحصل حول الثقب الأسود في مركب الفضاء –الزمن. وحيث إن للشبكات المعرفية المتأصلة دورًا في ترشيح المثيرات القادمة، فإنه يحدث ميل لتفسير المعلومات الجديدة تفسيرًا داعمًا للفكرة الأثيرية؛ كلما زادت قوة الشبكة المعرفية، زاد تأثيرها في الكيفية التي يدرك بها العالم. قد تتخذ حتى إجراءات لتوليد –أو تثبيط ما يعاكس– دليل داعم، كالرجل الموصوف في أغنية فريق الخنافس Beatles رجل بلا مكان Nowhere Man الذي «هو رجل حقًّا بلا مكان يجلس في أرضه التي دون مكان» والذي لا يرى إلا ما يريد أن يراه.

المجتمعات والأفكار المشتركة

«لا أريد أن أكون، أريد أن أكون نحن».

ميخائيل باكونين Mikhail Bakunin، رسالة

Mikhail Bakunin, letter

الأفكار الأثيرية جوهرية لنظرة المجتمع الذاتية مثلما هي جوهرية لنظرة الفرد إلى الذات، وربما أكثر؛ لأن الفرد يمتلك موارد بديلة أكثر يستطيع أن يستقي منها المعتقدات، ذلك أنه محدود جسديًّا ولديه أنماط محددة جيدًا من التصرف، أما المجتمعات التي هي أقل وثوقًا بتسجيدها، فتميل إلى النزوع بسهولة أكبر من الأفراد للبساطة الظاهرية الجذابة للأفكار الأثيرية: الحرية،

والعدالة، والمساواة، وأقرانها من الأفكار المغموسة بالدم. تكون المجتمعات التي حكوماتها ومؤسساتها الأخرى أقل تأصلًا عرضة خاصة للخطر، في حين لا تضطر المجتمعات الأكثر قدمًا أو الأكثر أمنًا للاعتماد على الحشود المساقة تحت نير العواطف الجياشة، وسبب ذلك جزئيًّا يعود إلى أن الأمان يسهم كثيرًا في تحسين مستوى الحياة، ومع تحسُّن مستوى الحياة يصبح الناس أقل تطلعًا إلى تغيير أنماط حياتهم. ليست المفاعلة والعواطف السلبية الأخرى بهذه الشدة؛ لذلك يجب على فنيي التأثير العمل بجهد أكبر لحشد الناس. يسهِّل الأمان الأكبر أيضًا، سواء على المستوى الفردي أو الاجتماعي، التسامح مع البدائل، وهو ما يؤدي إلى تنوع أعظم في الأفكار التي تغني المشهد المعرفي (الشخصي أو الاجتماعي).

قد تساعد زيادة التعرض للاحتمالات البديلة على شرح الوقائع المحيِّرة حول الإرهاب، وهي ظاهرة ارتبطت بغسيل الدماغ؛ فكثيرًا ما يندد السياسيون الغربيون بالإرهابيين بصفتهم غير منطقيين، وذوي مستوى علمي متدنٍ، وجهلة، لكن البحوث التي أجريت في الشرق الأوسط تدل على أن التعليم، إن كان بشيء فهو يتناسب طردًا مع دعم الإرهاب[9]؛ إذ يبدي التعليم للناس بدائل عن ظروفهم الحالية؛ فكلٌّ من التعليم العلماني والتعليم الديني -بطرقهما التي نعترف باختلافها- يؤكدان الأنماط المرغوبة جدًّا من عالم أفضل. قد تكون الرؤى مختلفة في تفاصيلها، لكن كثيرًا من الأفكار الأثيرية المعنية هي نفسها (يمجِّد الإسلام مثلًا العدالة، والرحمة، والصدقة، وكلها عزيزة على قلوب الديموقراطيات الغربية المتحررة). وعندما توفَّر هذه الأفكار الأثيرية، فإن التباين مع الحياة اليومية يمكن أن يكون أوضح بصورة مؤلمة مما كان عليه سابقًا، خاصة إذا كانت تلك الحياة تمضي في مجتمع يخضع للسيطرة ومليء بالفساد. يمكن أن تكون المفاعلة التي هي إشارة الدماغ إلى أن هناك عدم توافق بين الفكرة والواقع، دافعًا قويًّا جدًّا للتصرف. مكوَّنة ومستهدفةً من الشبكات المعرفية الموجودة أصلًا، أو بتأثير فنيي التأثير (سواء كانوا متدينين أم علمانيين)، تجتمع الأحلام والرغبات معًا مؤدية إلى نتائج التهابية، ومن غير الحلم قد تبقى الرغبة غير مركزة؛ ومن غير الرغبة لا يمكن أن تحلم بالسموم (يعبر الحلم بالسم على الإخفاق والإحباط).

إن إعطاء الناس أهدافًا من دون إعطائهم وسائل تحقيق هذه الأهداف يعد وصفة جاهزة للاعتراض؛ والمعارضة المحبطة وصفة للعنف، والسيطرة على العنف تتطلب منك أن تجعل نفسك تبدو أقل إنسانية أمام من تحاول السيطرة عليهم، وهو ما يجعل من الأسهل عليهم أن ينظروا إليك على أنك أدنى إنسانية ويزيدوا من حدة عنفهم تجاهك. عدم عرض أهداف على

الناس في المقام الأول، بتقييد الحرية وقدرة الوصول إلى الإعلام العالمي هو أحد الارتكاسات الممكنة، ولكن في عالمنا المتقلص والمترابط تتزايد احتمالية عدم نجاح هذه الطرق، وهي تتعارض أيضًا وجهًا لوجه مع أكثر الأفكار اعتزازًا في كل من الديموقراطيات المتحررة وأعظم أديان العالم (مع أن هذا لا يستدعي أن يكون مشكلة: كما رأينا، فإن إحدى مزايا الأفكار الأثيرية هي مرونتها).

تنتقل أفكار مجتمعية عدة مباشرة من شخص إلى شخص، أحيانًا صراحة وأحيانًا بشكل ضمني؛ فعلى سبيل المثال إذا ناقش الأستاذ والطلاب عقوبة الإعدام، فسيتعلم التلاميذ عددًا من الحقائق المعلنة بوضوح (مثلًا: آخر امرأة شنقت في بريطانيا كانت روث إيليس Ruth Ellis عام 1955م)، لكن المناقشة ستعزز أيضًا عددًا من الافتراضات المنتشرة: أن الجريمة يجب أن يعاقب عليها (سواء بالموت أم لا)، وأن الحكومة يمكنها أن تؤذي شخصًا ما بصورة قانونية (سواء كان ذلك إلى درجة قتله أم لا)، وهكذا. قد يكون هناك صراحة معلنة -وهي طريقة جيدة لجعل الأطفال يتساءلون عن الأفكار- لكنها قد تترك من دون ذكر في كثير من الأحيان. هذه الشبكات المعرفية المجتمعية هي أفكار يحملها عدد كبير من أعضاء المجتمع، إن لم يكن جميعهم (يعتمد مدى كون الفكرة مجتمعية على عدد أدمغة الناس قد اخترقتها)، وقد تكون موضوعة بصراحة في الدستور، أو لا يعبر عنها إلا نادرًا أو على الإطلاق؛ وفي كل من الحالتين ما يجعلها قوية هي درجة قبولها، ويشجَّع القبول بمؤسسات مثل العائلة، التي تنقل المذاهب الفكرية من جيل إلى آخر (ناقشنا ذلك في الفصل الخامس).

وسائل الإعلام

«عمليًا فإن المعتقدات، محقة أو غير محقة، مدعومة بالمنطق أو بالتحيز، يمكن أن تطبع في الأذهان وتقبل على نطاق واسع بأنها منطقية بوساطة التلاعب المقصود أو الاستغلال غير المقصود للمؤسسات السائدة».

موراي إيدلمان Murray Edelman، **سياسات التضليل**

Murray Edelman, The Politics of Misinformation

تبث الشبكات المعرفية في المجتمعات الحديثة أيضًا بشبكات عالمية معقدة من الاتصال العام: الإعلام المطبوع، المذياع، (الصور المتحركة)، والشبكة، ويحتاج فني التأثير الذي يسعى

إلى غسيل دماغ العموم أن يكون قادرًا على السيطرة على وسائل الإعلام هذه، وتخصص الحكومات الشمولية كثيرًا من جهدها لهذه المهمة (شاهد الضغوط المطبقة على المؤسسات الإعلامية ذات الملكية الخاصة في صربيا أيام الحكم الشمولي لسلوبودان ميلوزيفيتش Slobodan Milosevic)، ولكن عندما تصبح المجتمعات أكثر تعقيدًا فإنها تميل -مثل الخلايا- إلى أن تصبح أكثر استجابة للمؤثرات الخارجية، ومن ثم أكثر نفوذية للأفكار الجديدة. يجعل هذا التأثير للعولمة (التي هي نفسها أثر للتعقيد المتزايد) السيطرة أكثر صعوبة، حتى لو كان فقط بسبب وجود مصادر أكثر من الأفكار يجب رصدها، ومراقبتها، أو منعها. الطاقات المخصصة لنظام المناعة المجتمعي، هي طاقات محولة من وظائفها الاستقلابية الأساسية، وتميل الاقتصادات الشمولية إلى الركود الذي يمكن أن يؤدي إلى تسريع الامتعاض أكثر من أي قدر من الدعاية المعادية[10].

هذا لا يعني أن سهولة الوصول إلى المعلومات لا تساعد على زعزعة الدولة الشمولية؛ لكن الحوادث السياسية يغلب أن يكون لها أكثر من سبب واحد. تستطيع وسائل الإعلام -مثل التعليم- أن تقدم للناس أفكارًا جديدة، وتقدم رؤى بديلة (مثلًا للحياة في الغرب الباهر)، وتزيد المعرفة، أو تتحدى الحكمة الموروثة للسلطة. يعتمد هل سيحدث هذا فعلًا على الدوافع التي تقع وراء تزويد المعلومات السخية. سيميل الوسط الإعلامي المملوك للدولة- بفجاجة- إلى عكس مواقف الحكومة ورغبتها في السيطرة، في حين تعكس وسائل الإعلام الخاصة مواقف مالكيها ورغبتهم في الربح.

أسطورة الحيادية -فكرة أن هناك شيئًا يمكن أن يكون حقيقة عارية غير مفسرة- هدف مفضل لمرحلة بعد الحداثة. على الأقل منذ الأيام المجيدة لهايديغر Heidegger وويتغينستاين Wittgenstein، اصطف المفكرون للهجوم على الفكرة التي عبر عنها تيري إيغلتون Eagleton، «الحقائق عامة ولا يرقى إليها الشك، في حين أن القيم خاصة وغير مسوَّغة»[11]، ويصوغ إيغلتون تحديه كما يأتي:

> **«هناك فارق واضح بين سرد حقيقة، مثل (بنيت هذه الكاتدرائية عام 1612م)، وتسجيل أحكام على القيمة، مثل (هذه الكاتدرائية قطعة رائعة من هندسة العمارة الباروكية)، لكن افترضوا أنني قلت النوع الأول من العبارات وأنا أجول بزائرة أجنبية في أرجاء بريطانيا، ووجدت أن ذلك قد حيرها كثيرًا. قد تسأل: لماذا تستمر بإخباري بتواريخ تأسيس هذه الأبنية كلها؟ لماذا هذا الهوس بالأصول؟ قد تضيف أنه في المجتمع الذي تعيش فيه، لا نبقي بتاتًا سجلات لمثل هذه الأحداث؛ وعوضًا عن ذلك نحن نصف أبنيتنا على حسب واجهتها؛ شمالية غربية**

أم جنوبية شرقية. ما يقدمه هذا هو إظهار جزء من النظام غير الواعي للأحكام على القيمة الذي يكمن وراء عباراتي الوصفية الخاصة. مثل هذه الأحكام على القيمة ليست بالضرورة من نفس نوع عبارات مثل: «هذه الكاتدرائية قطعة رائعة من هندسة العمارة الباروكية»، لكنها مع ذلك أحكام على القيمة، ولا يمكن أن يتجنبها أي إعلان وقائعي أطرحه».

إيغلتون Eagleton، **النظرية الأدبية**، الصفحة 13.

Eagleton, Literary Theory, p. 13

لا يمكن أخذ العبارات بانعزال؛ إذ إن هناك دائمًا سياقًا اجتماعيًّا، وأحيانًا يكون السياق الفعلي للعبارة أقل أهمية بصورة جلية من اتصالاتها من المعلومات غير اللفظية، ونحن عندما نحلل عبارات صديق -أو قارئ للأخبار- فإننا نعتمد على مؤشرات عديدة غير لفظية، تقوَّم بعبارات تقويمية. وحتى عندما نقرأ فإننا نقرأ بين السطور (كما أظهرت مناقشة البيان الرسمي للحزب القومي البريطاني في الفصل التاسع). المعلومات التي تصل إلى أعيننا، أو آذاننا، أو (إذا كنا نقرأ لغة بريل Braille للعميان) رؤوس أصابعنا، مصيرها المرور عبر حقل ألغام من أدوات الترشيح التجريبية التي فحصت بالتوقعات السابقة؛ بحيث إنها قد لا تصل إلى المواقع المرتفعة للوعي. مهما كانت المعلومات التي تصل إلى القشرة فإنها ستستعمل لتوليد سلسلة من التخمينات المعقدة، وفرضيات قد تتأثر من دون وعي بجميع أنواع العوامل؛ من وضع كلمات عاطفية، إلى الفيروسات المزدهرة في تيارنا الدموي التي هي على وشك أن تصيبنا بتسمم طعامي. لا تستعرض الحقائق العارية بوساطة مشاهدنا المعرفية من غير طبقة من التفسيرات التي تحافظ على حشمتها، أحيانًا نجعل تلك الطبقة شفافة زيادةً، والرياضيات مثال على ذلك، لكن سواء كانت رقيقة أو ثخينة، فهي دائمًا موجودة، وهي تقويمية من غير شك. الفلاسفة مغرمون بقول إنك لا تستطيع أن تحصل على (يجب) من (يكون)، لكن التجريد يمكن أن ينتقل بالطريق المعاكس؛ إلى (يكون) من (يجب). بتجاهل جميع أحوال الخلفيات، وبمقارنة عديد من الأمثلة واستخلاص المظاهر المشتركة منها، نستطيع الوصول إلى رمز جاف، (حقيقة). بعبارة أخرى، ربما كانت كلمة (يكون) هي ببساطة (يجب) مع (تقريبًا) شفط كامل العصير العاطفي.

لا مهرب لأحد، ولا حتى أكثر المحررين تدقيقًا، من وجهة نظره، فهل يجب أن نستنتج إذًا أن موارد الأخبار كلها متحيزة، وأنه ما دمنا ندرك وجود تحيزها فإنه يمكننا بشكل أو آخر أن نأخذها بالحسبان، ومن ثم التعويض عنها؟ حسنًا؛ الجواب هو لا، حسب مُنظري الدراسات

الإعلامية، لأن هناك اهتمامًا أكثر بالتفسيرات الانتقائية من التحيزات البسيطة. يميِّز جون ستريت John Street –على سبيل المثال– فكرة التحيز من فكرة (الإطار)[12]، فالتحيز هو ميل منظم للإبراز الانتقائي، أو حتى التقديم غير الصحيح، للمعلومات، إذ تنشر صحيفة جناح اليمين –على سبيل المثال– بتكرار قصص عن الفقر بعبارات سلبية كي تدعم المذهب الفكري الذي يلوم الفقير على سوء طالعه. ولأن التحيز منهجي جدًّا بالخصوص، فإنه أسهل كشفًا: أي من الصحف التي يقرؤها شخص ما تخبر المراقب أكثر عن الفقراء مما يخبرهم عن الثياب التي يلبسها هؤلاء الفقراء.

التحيز أسهل معالجة إذا كان بإمكان المرء الوصول إلى موارد بديلة لوسائل الإعلام، كما في المجتمعات التي تملك وسائل إعلام محلية وطنية، خاصة، متنوعة ومتنافسة، يملك أصحابها طيفًا واسعًا من الخلفيات، ومع ذلك فإن الضغوط لتبسيط معايير، وتوحيدها، والاتفاق مع الرأي الشائع (أو رأي مالك الوسيلة الإعلامية)، قوى قوية تعمل لإنقاص التنوع، كما بحثنا في الفصل الثالث، ومن ثم فالتفكير الشمولي ليس المحافظ الوحيد على الحكومات المغرورة. أحد الأسباب لوجوب عدم ترك تنظيم وسائل الإعلام، كما حاجج بعضهم، في الأيدي الخفية للسوق، هو عدد العوامل التي تنقص فرصة أن يكون السوق سوقًا حرة. ربما لم يكن آدم سميث Adam Smith، الذي يختار الرأسماليون الحديثون من تحفته **ثروة الأمم** كثيرًا من مسوغاتهم، ليوافق على وسائل الإعلانات الحديثة، أو شبكة الصحفيين الحميمين (بعضهم مع بعض ومع السياسيين) التي تصل علاقتهم إلى حد تشبيهها بسفاح القربى، أو مدى القوة الموجودة في أيدي أقطاب قليلة من وسائل الإعلام العالمية، أو ملامح أخرى عديدة من وسائل الإعلام البريطانية المعاصرة[13].

الأطر أحذق وأكثر صعوبة في كشفها من التحيز، فضلًا عن أنها كثيرًا ما تكون أكثر ثباتًا بين موارد وسائل الإعلام. ويرى ستريت Street أنه «على الرغم من أن الأطر أجهزة لرؤية العالم بطريقة محددة، فإنها تختلف عن فكرة التحيز من حيث أنها لا تتخذ موقفًا مذهبيًّا فكريًّا منفردًا»[14]، وبدلًا من ذلك، تؤكد دراسات وسائل الإعلام أن (قصص الأخبار) هي تمامًا كذلك؛ قصص. ولديها مثل القصص الأخرى بنى سردية انتقائية تبنى على افتراضات ثابتة بعمق (مثلًا: حول السبب والتأثير، والأخلاقية، والعلاقات الاجتماعية)، وتنبذ المعلومات غير الثابتة أو غير المهمة. يملك رواة القصص، ومن بينها تقارير الأخبار، عددًا من النماذج المتوافرة لهم، وسوف يستعملون أي شيء يلائم أفضل ما يكون لتنظيم القصة التي يروونها: (بطل شجاع)،

(عـدم كفاءة بيروقراطيـة)، (صراع ملحٌّ)، وهكذا. كل نموذج- أو إطار- لديه لغة خاصة تترافق معه، فإذا مات طفل من المرض على سبيل المثال، فإنه من المحتمل أن يشار إليه على أنه شجاع، وأنهـا مأسـاة، وفـوق كل شـيء كان فاضـلًا أخلاقيًّا، ومـورد سـعادة لأبويه اللذين همـا الآن أبوان مفجوعـان. لا شـك أن ذلـك الطفل قد صرخ في يـوم من الأيام أو حرد أو ضـرب أخته الصغيرة، والأطفال يفعلون ذلك، ولكن هذه الملاحظة الشائعة لا تناسب الإطار، ومن ثم فإنها لا تظهر في التقارير الإخبارية. وإذا كان الطفل قد قتل من قبل شخص غريب، فإن عوامل المأساة والفضيلة الأخلاقية ستكون حاضرة، لكن بدلًا من الشجاعة سيكون لدينا براءة، وما يناسبها من نفي صفة الإنسانية عن القاتل.

الأطـر والتحيـزات امتـدادات مجتمعية مشـتركة للطرائق الفرديـة للنظر إلـى العالم. وفي الحقيقة، فإن وجهات النظر الشخصية والاجتماعية تتفاعل ويؤثر بعضها في بعض. تدعي وسائل الإعلام أنها تعكس وجهات نظر الجماهير: يضمن الربح في الشركات الخاصة التي تواجه كثيرًا من المنافسة على الأقل بعض التوافق بين المصدر والجماهير، وحتى في وسائل الإعلام الخاضعة للدولة لا بد من وجود بعض التوافق، وإلا أصبحت مدعاة للسخرية، كما حدث في كثير من الدول الأوروبية الشرقية تحت الحكم الشيوعي. ولكن وسائل الإعلام أيضًا -كما بحثنا في الفصل الثالث- ترسـم شـكل الآراء الجماهيرية: يمكن أن تعطي المشاهدة المتمايزة للتلفاز -على سبيل المثال- فوارق مهمة في مواقف الأشخاص حسب نوع البرامج التي يشاهدها.

يقترح ستريت Street أن الأخبار، بالصورة التي تقدمها وسائل الإعلام، «هي منتج الحاجة إلـى التجـارة»[15]، والتجـارة مظهـر تاريخـي قديـم للأفعـال المتبادلة بيـن البشـر، ويحاجج عالم الاقتصـاد هيـم أوفـك Haim Ofek بأنه «يمكن تتبـع أقدمية التبادلات البشـرية إلى مرحلة زمنية باكـرة منـذ 1.5-2 مليـون سـنة»[16]، لكن تعقيد إجـراءات التجارة الحديثة، يتناسـب مـع تعقيدات إدارة المعلومـات. ويفترض أن التبـادل بدأ بالتعامـل وجهًا لوجه ضمن وحـدة اجتماعية صغيرة كان كل فـرد فيهـا يعتمد على المجموعـة في الحماية وحتى البقاء. وكانت أي محاولة للغش تُعاق بعـدم القـدرة على تجنـب المرء لضحيتـه وانتقامها في المسـتقبل، إضافة إلـى التهديد بالعقاب من أعضاء المجموعة الآخرين، وإضافة إلى ذلك فإن المسـاهمين في التبادل كانوا يسـتخدمون إشارات غير لفظية لتقويم إمكانية وثوق بعضهم ببعض. وعلى الرغم من أن تقاليد التعامل وجهًا لوجـه قد اسـتمرت حتى يومنا هذا (اجتماعات القمة السياسـية مثال علـى ذلك)، فإن كثيرًا من

التبادلات إما غير مباشرة؛ لا تحتاج إلى أي اتصال بشري، أو تتضمن لقاءات مع أشخاص قد لا نجتمع معهم مرة أخرى طيلة حياتنا. أضعفَ العيشُ في مجتمعات أكبر بكثير، كما يعيش معظم سكان الغرب اليوم، قبضةَ المجموعة على الفرد، وهو ما جعل الغش خيارًا أكثر إثارة للاهتمام، وزاد اعتمادنا على أولئك الذين يحققون التبادلات.

إن الاعتمادَ غير الناقد للمصادر الإعلامية بات ضرورة، وببساطة نحن لا نملك الموارد للتأكد من كل عبارة بأنفسنا، لذلك فإما أن نثق بها، أو نرتكس، إذا كان هناك تحد للثقة، ببسط بساط من السخرية لا يتجاوز في كثير من الأحيان (سطح الجلد) (لأنه عمليًّا إذا كذَّبنا كلَّ شيء فإن ذلك بالتأكيد سوف يشل قدراتنا). ولما كانت المؤسسات الجديدة تعرف أهمية الثقة، فهي تبذل الجهود بعناء لتقديم نفسها على أنها سلطات موثوقة وغير متحيزة، وتشير في الوقت نفسه إلى تحيز خصومها[17]، ولكن وفق ما يقترح ستريت Street، فإن «تقديم التقارير هو نوع من البلاغة، جوهره إقناعنا -نحن القراء والمشاهدين- أن شيئًا ما قد حدث»[18]، وعلى هذا النحو، فإن المعلومات التي نتلقاها من وسائل الإعلام ملخصة مسبقًا، مثل الماء في صنابير البيوت الذي مر مقدمًا عبر نظام شخص آخر ما، وربما أشخاص آخرين عدة. قد نختار بتحيز الصحيفة التي نقرؤها، لكننا لا نختار الإطار لفقرة معينة، وربما لا نلاحظ حتى أن المعلومات قد شُكِّلت وحُرِّفت كي ترضي أفكارنا السابقة، وفي الحقيقة، ليس في النية أن يجعلونا نلاحظ؛ لأن الملاحظة قد تثير المفاعلة ومن ثم يكون لها مردود عكسي.

قوة شخصية المجموعات

«قد ترضي عضوية العصابة حاجات لا يمكن إرضاؤها في أماكن أخرى، مثل الحاجة إلى الأمان، والاتصالات الإيجابية مع الآخرين، والشعور الإيجابي بالذات، أو الشعور بالكفاءة».

إرفين ستوب Ervin Staub، **علم نفس الخير والشر.**

Ervin Staub, The Psychology of Good and Evil

بحثت في الفصل السابق فكرة أن الشخصية الكارزمية قد تتعلق جزئيًّا بمفهوم الأفق الواحد المُدرك لدى الشخص. قد يُعجَبُ بالأشخاص المخلصين لهدف واضح جلي أو يُذمون حسب طبيعة الهدف، لكن بساطتهم ووضوح هدفهم يحسدهم عليها أولئك الذين لديهم عقول متعددة الهدف ومشتتة. قد تبدو الحياة بلوني الأبيض والأسود سهلة جدًّا للمشاهد

الـذي ترهقـه درجـات اللـون الرمـادي، فلمـاذا لا تتبنـى هذا المبـدأ وتعطي قشـر دماغـك الذي يعانـي منـذ زمـن بعيـد فرصـة الراحة التي يسـتحقها فعلًا؟ «لكونك لسـت ذا دماغ كسـول كسـلًا نهائيًّـا، منغمسًـا فـي الملـذات، أو غبيًّـا إلـى حـد مقـرف»، هـو جـزء مـن الجـواب، لكنـه فقـط جـزء، إذ يُدفَـع بعض النـاس إلى البسـاطة ليس فقط بسـبب الكسـل أو الأنانية أو الغبـاء، وإنما أيضًـا بالخـوف، أو الغضـب، أو الإحبـاط، وغيرها من مشـاعر سـلبية يثيرها العالم الذي يشـكل تهديـدًا، فيمكـن أن تكـون الكوارث الطبيعيـة أو الاجتماعيـة، مفيدة في زيادة الحضور للكنسـية؛ ويمكـن أن يفسـح ضعـف الدولة المجال للثورة الشـعبية؛ وتحشـد المشـكلات الاقتصادية الدعم للمتطرفين. وعليه؛ فعندما لا تكون البيئة مسـتقرة، سـواء سياسـيًّا أو اقتصاديًّا أو جسديًّا، يتعزز إغواء البساطة.

يمكن أن تثير العقيدة البسـيطة، المدعومة بالإقناع، إعجاب الآخرين، وكثيرًا ما تسـتجذب كثيرًا من التابعين، خاصة إذا لم يكن لدى هؤلاء التابعين قناعات قوية خاصة بهم. ربما كان لدى القائد نافذِ الشخصية الذي يبدو بأنه يؤمن إيمانًا صادقًا بهذه العقائد، فرصة لإقناع الآخرين أفضل من القائد الذي يفكر في كل تفصيل، ويسهب في تحليل العقبات والاختلاطات، والشيء نفسه صحيح بالنسبة إلى المجتمعات؛ تعطي الأفكار التي حظيت بتغطية إعلامية جيدة الانطباع بالوحدة، ومن ثم قوة الهدف، والأفكار الأثيرية، مثل الحقيقة والعدالة والتسـامح والحرية، مفيدة بالخاصة في تعزيز الشخصية الكارزمية للمجتمع: يزيد إبهامها الخفي في جاذبيتها، ويمكن أن يذاع في كلمات قليلة مقنعة.

تشـكل وسـائل الإعـلام آلية أساسـية يعـزز فيهـا المجتمع صورتـه الذاتية، ومـن ثم فيمكن لمظهـر الإجمـاع، خاصة في وسـائل الإعـلام الخاصة حيث يكون وجود كميـة معينة من التنوع هو المعتاد، أن يكون له تأثير كبير في المواطنين الذين يستهلكون منتجات وسائل الإعلام، مسهِّلين الوحـدة الاجتماعيـة مع زيادة قدرة الحكومة على التحكم في شـعبها، ويمكن أيضًا أن تكون جبهة موحدة مفيدة في المسـرح الدولي (الوحدة والولاء، هي فضائل المجموعة المفضلة). في معظم الأحيان قد لا تسـبب معظم السـخافات التي يجري الحديث عنها في وسـائل الإعلام عن الأفكار الأثيريـة ضـررًا بوضـوح شـديد، والمـكان الذي تكون فيـه مهمة جدًّا هو عندما تعكـس الانقسـام الاجتماعـي المريـر. الحديـث بالأنمـاط النمطيـة نادرًا ما يكـون مفيـدًا عندما يتعلـق الأمر بحل المشكلات السياسية المعقدة.

انظر في العبارات الآتية: (الإسلام حق)، (الرجال قوامون على النساء)؛ (الولايات المتحدة هي أرض الأحرار)؛ و(الشيوعية عقيدة نبيلة)؛ جميع هذه العبارات، إن قبلت، تعزز الصورة الإيجابية لمؤسساتها المعنية، ويمكن أن تقابل كلها بدعاوى نظرية بالقدر نفسه: (فقط المسيح يرينا الطريق للحقيقة)، (النساء أكثر حنانًا من الرجال)؛ (بنيت الولايات المتحدة الأمريكية بعمل العبيد)؛ (الرأسمالية هي الفُضلى). إذا كان اهتمامك الوحيد هو جعل المنتخبين يشعرون بالرضى عن أنفسهم (ويصدف من ثم أن يصبحوا أكثر التزامًا بك)، عندها يمكن أن تفيد عبارات كهذه كثيرًا، ولكن إذا كنت تحاول أن تصالح الشيوعيين والرأسماليين مثلًا، فعليك أن تبتعد عن الأفكار الأثيرية؛ فلا تعرض الحرية، بل التحسين الملحوظ في الحريات الشخصية؛ ولا تعرض الحقيقة التي لا جدل فيها، بل معرفة أن الحقيقة تأتي في ألوان عدة، وأن كلًّا من الطرفين قد أساء أحيانًا لحقوق الإنسان وأساؤوا لقيمهم المثالية الخاصة بهم.

حتى في الدماغ البشري الواحد الذي تجبر فيه محدودية جسم الإنسان المفرد، بقوة، المصالح المتنافسة على التعاون، فإنه يمكن أن يحتوي على أفكار غير متلائمة، كما رأينا. والمجتمعات حتى لو كانت مستقطبة بسنوات من الصراع، أقل تكلفًا بكثير؛ ففي الشرق الأوسط -على سبيل المثال- من الممكن العثور على إسرائيليين يكرهون ما تقوم به حكومتهم تجاه الفلسطينيين، وفلسطينيين يحزنون لموت مدنيين إسرائيليين في حادث تفجير، وأعضاء من كل من المجتمعين يعملون معًا في المصالحة ومشاريع التعليم. يمكن رؤية مثل هذا التنوع من الآراء في مسارح أخرى للصراع مثل إيرلندا الشمالية، أو سريلانكا، أو السودان، لكن هذه الأصوات المتناغمة لا تسمع كثيرًا، إنها لا تطابق إطار (الصراع المستعصي) الذي تعلق فيه قصص هذا الصراع عادة.

غسيل الدماغ والجماهير

بدأ الفصل الأول بالتعريف المعجمي لغسيل الدماغ: «الإلغاء الممنهج وغالبًا القسري لأكثر الأفكار رسوخًا في عقل الشخص، خاصة السياسية منها، حتى تحل محلها مجموعة أخرى من الأفكار». لقد ذكرت في هذا الكتاب الطبيعة السياسية لمفهوم غسيل الدماغ، في أكثر الجوانب الأساسية للسياسة التي تتعامل مع العلاقات بين الأفراد والمجموعات التي يشكلونها. هناك،

فيما يتعلق بتقنيات التأثير، أربعة تراكيب نظرية محتملة: أفراد يؤثرون في أفراد آخرين، أفراد يؤثرون في مجموعات، مجموعات تؤثر في مجموعات أخرى، ومجموعات تؤثر في الأفراد.

يترافق غسيل الدماغ تقليديًّا مع الإكراه، لكن استعمال القوة له مشكلاته الخاصة؛ فتطبيق القوة على شخص ما يحرِّض مفاعلة قوية، وهو ما يفعِّل غرائز الضحية العاطفية الخاصة للدفاع عن الحرية المهددة، وعلى الرغم من أنه قد يكون قادرًا على تطبيق قوة كافية للتغلب على هذه المقاومة، فإن الضحية يصبح متأذيًا جدًّا فيصير عاجزًا، والأهم من ذلك -من وجهة نظر غاسل الدماغ- أنه لا يمكن الاعتماد عليه؛ فقد كان هناك نسبة عالية من الأمراض النفسية في السجناء الأمريكيين الذين عادوا من كوريا. قد يحدث تغيير واسع النطاق في المعتقدات بسبب القوة، لكن لا يمكن الوثوق بأن يبقى مستقرًّا على المدى الطويل من دون الإشراف الدقيق -واستمرار الإكراه- على الضحية. يتطلب هذا بالنسبة إلى الأفراد مقدارًا ضخمًا من الوقت والجهد من قبل غاسل الدماغ، وعلى الرغم من أن الضحية قد يخمد آراءه السابقة فإنه لا يوجد ضمان بأنها لن تظهر مرة أخرى إذا رفع الإكراه (يختلف الإكراه في هذه الناحية عن سلفه التعذيب الذي يتطلب عنفًا لمدة قصيرة فقط، وكثيرًا ما ينتهي بالموت، ويهدف إلى تحريض أنواع معينة من السلوك وليس تغيير المعتقد). يحدث مثل هذا النوع من التفاعل -ويمكن أن يقدم العنف الأسري مثالًا على ذلك- لكن مقدار الجهد المبذول في الوقت الحالي كبير جدًّا بحيث يصبح رادعًا كبيرًا بذاته، وحتى لو وزعت المشاركة في مهمة الإكراه بين أعضاء مجموعة ما فإنه لا يزال يلزم موارد ذات قدر للتحكم في شخص واحد ومراقبته، فضلًا عن التحكم في أشخاص عدة. أما فيما يتعلق برابع التراكيب؛ وهو تأثير الأفراد في المجموعات، فإن التأثير الجبري غير محتمل، ببساطة على أساس عدم توافر الموارد لفعل ذلك.

ولكن هناك خيار آخر: التسلل؛ وأشمل تحت هذا العنوان الواسع عناوين فرعية هي الإعلانات ووسائل الإعلام، والمثالية الزائفة التي ينسجها القادة ذوو الشخصيات النافذة، والتقنيات المقترحة للتلاعب بالعقل (التي سأتحدث المزيد عنها في الفصل القادم). للتسلل -إن كان ناجحًا- مزايا على القوة؛ إنه يتجنب مشكلة المفاعلة. الخطر -وبالتأكيد أنه مما لا يلائم- هو أن الضحية قد تلاحظ الخداع، وتحرض على رد فعل عكسي غاضب، وكثيرًا ما يقامر فنيو التأثير التسللي بأنه إلى أن يحدث هذا فإنهم يكونون قد حققوا أهدافهم وذهبوا إلى مراعٍ

جديدة وخرفان أخرى يجزون صوفها. هدفهم إذًا هو التأكد بأن الضحايا لن ينظروا إلى سلوكهم على أنه محاولة تأثير.

التسلل خيار أسهل من القوة، خاصة عندما تكون الحاجة إلى تغيير المعتقد مؤقتة فقط، ولا حاجة إلى أن يكون التسلل واعيًا؛ بل إن النجاح مضمون أكثر إذا كان الخادع يصدِّق ما يقوله، أو يمكنه أن يبدو كذلك بصورة مقنعة، وهذا ليس ثنائية فجة كما يبدو عليه الأمر؛ فهناك متحدثون يشعرون عندما يحاجُّون في قضية باعتقاد جازم بالذي يقولونه، وقد تستمر أو لا تستمر قناعاتهم لوقت أبعد من انتهاء المناظرة، عندما تكون نار العاطفة قد خمدت؛ لكن حين يكونون ضمن اللهب فإنهم صادقون تمامًا؛ طوَّر البشر مرافق لكشف الكذب، لكنها ليست معصومة بأي حال من الأحوال؛ فقد يكون كشف كذب من يصدِّق، ولو للحظة، الكذبة التي على شفتيه أبعد بكثير من قدرات ضحاياهم على الكشف.

ولكن يواجه غاسل الدماغ الذي ينوي التحكم في عامة الجماهير صعوبات خاصةٍ بالتسلل، إذ يتضخم خطر أن يكتشف في جمهور له خلفيات، أو عقائد، أو رغبات مختلفة، ويتضخم أكثر إذا كان الجمهور قادرًا على الوصول إلى مصادر بديلة للمعلومات، إذ يندر حتى في أكثر المجتمعات انغلاقًا اليوم وجود ينبوع واحد للحقيقة. في الحالة المثالية، يفضل غاسل الدماغ (سواء الدولة أو الفرد) أن يكون الجمهور المستهدف منعزلًا، وإذا لم يكن ذلك ممكنًا، فقد لا يزال ممكنًا أن يجعلهم يشعرون بأنهم منعزلون، بتضخيم خطر التهديد الخارجي (أي تحديد مفهوم مجموعات خارجية أو تعزيزه). هناك دائمًا عدو يسهل تسميته (مثلًا الشيوعية، القاعدة)، خاصة إذا لم يكن بالإمكان تعريف عناصر العدو أنفسهم بوضوح: يمكن عندها اقتراح وجودهم ضمن المجموعة المستهدفة، وهو ما يثير مزيدًا من عدم الارتياح. يودُّ غاسل الدماغ أن يُبقِي الجماهير المستهدفة متوترة، أو مشغولة، أو كلا الأمرين؛ لأن ذلك سوف يقلل احتمال اعتراضات (توقف وفكِّر).

تغيير المعتقدات على المستوى الجماهيري، بالنظر إلى حجم المجتمعات الحديثة، لا يدخل حتى في نطاق التساؤل دون وجود دعم من مجموعة، وللحصول على هذا الدعم، سوف يستعمل فني التأثير أساليب بحثناها على امتداد هذا الكتاب؛ فينمق بلاغته بأفكار أثيرية، مستعملًا اللغة بذكاء لإدخال المترافقات المعنية في أدمغة ضحاياه، مع التأكد بأن عقائده بسيطة ولا تنسى، وهو مثل سقراط في الحوارات التي ذكرها أفلاطون، يسعى إلى الحصول على موافقة ضحاياه في كل مرحلة من محاولته تغيير عقولهم[19]، مع أن هدفه هو جعل الضحايا يشعرون بعدم السعادة، بحيث

يبحثون عن (المساعدة) التي هو جاهز لتقديمها، فإنه سيبذل قصارى جهده لأن يبدو محبوبًا، مازحًا، وبشوشًا، حيث يخمد تحديات وجهة نظره بالقرار وليس بالقوة، مؤكدًا ما بينه وبين جمهوره من تشابه. وقد يعطي أيضًا الانطباع بمناظرة سليمة، بل وناقدة للذات (مثلًا باستعمال مناصريه في مناقشات تمثيلية)، لكن الرسالة التي تعطى فعلًا تكون دائمًا نفسها حتى لو كان يبدو بأنه يقول العكس[20]. سوف يحرص على تجنب أي انطباع بعدم التأكد، مؤكدًا شخصيته النافذة بمظهر ثقة الأفق الواحد. إنه يأمل بكل هذه الطرق أن يكسب الشعبية لأهدافه، محققًا ظهورًا منتظمًا على وسائل الإعلام، دافعًا الناس للحديث، مقنعًا السلطات المحترمة بأن تشير إلى أفكاره على أنها ليست فقط منطقية، وإنما هي حتى أمر مفروغ منه.

الأدمغة البشرية مبرمجة على اكتشاف التغيرات، أي عدم التلاؤم بين تجاربها المختزنة والمعلومات التي تتلقاها حاليًّا، يمكن أن يستعمل فنيو التأثير هذا لجذب الانتباه بتقديم أنفسهم على أنهم جدد، وفريدون، ومختلفون. المنزلَق في هذا هو أن الهوة الواسعة كثيرًا بين الأفكار التي يطمحون إلى فرضها وتلك التي تحتل حاليًّا أدمغة المستهدفين، سوف تقلل من فرص قبول الأفكار الجديدة. ومن ناحية أخرى، فإن الخطوات الصغيرة أسهل ابتلاعًا (خذ عددًا كافيًا من الخطوات الصغيرة، وسيتحول مواطنون محترمون من الطبقة المتوسطة إلى قتلة بدم بارد) تساعد معرفة الجمهور المستهدف أيضًا على رسم طريقة التقديم. إضافة إلى استعمال استجابة الدماغ للشدة والتغير، لا بد لغاسل الدماغ أيضًا أن يستعمل الضغوطات الاجتماعية الموجودة لمصلحته؛ بربط المجموعة الخارجية التي اختارها بصفات غير مقبولة اجتماعيًّا، مهددة للمجموعة الداخلية، مثل الأنانية، والقذارة، والمرض، وعددهم الكبير بصورة وبائية، وفي آن واحد يزيد الشعور بالتهديد ويطمئن جمهوره بأنهم هم أنفسهم ليسوا أنانيين لا يمكن الثقة بهم، أو أغبياء، أو طاعون على وجه كوكب الأرض[21]. وهذا كله ينطبق على الجماعات كما ينطبق على الأفراد، وحسب الأحوال، فقد يأخذ التسلل كسوة كاملة من الأشكال.

الخلاصة والاستنتاجات

مهما كانت التقنية المعينة، فإن التسلل- شأنه شأن استعمال القوة- له محدوديته. يتسبب استعمال التسلل بحدوث آثار جانبية غير محمودة في زيادة تشكيك المرء بالآخرين (إذا كنت تغش، فلماذا يجب ألا يكونوا غشاشين؟)، لذلك قد يؤدي التسلل إلى استعمال القوة مع زيادة

التحكم؛ في محاولة للانتقال من الخداع إلى غسيل الدماغ ذي التأثير الكبير، ومن ثم ضمان الخنوع؛ لأن التسلل وحدة لا يمكنه أبدًا أن يهدئ بالكامل الشعور بالاضطهاد. المشكلة الأخرى هي أن التسلل قد ينجح لمدة محدودة، أو في تغيير منطقة ضئيلة من المشهد المعرفي، لكن يبدو أنه غير قادر على تحقيق التحول الممنهج بالقوة الذي كان تقليديًّا متوافرًا موضوعًا على أبواب غاسلي الدماغ في المدة الزمنية المماثلة القصيرة. وكما رأينا على امتداد هذا الكتاب، حتى هذه التحولات -على الرغم من أنها قد تكون مثيرة للدهشة في بعض الأحيان- يمكن تفسيرها بمصطلحات علم النفس الاجتماعي. يمكن بالتأكيد أن يحدث غسيل الدماغ على صورة تغيير معتقد؛ لكن ما لم نجده هو الدليل على أن غسيل الدماغ طلقة سحرية.

لكن غسيل الدماغ بصفته طلقة سحرية هو تمامًا ما يلزم لتحويل حلم التحكم، خاصة السيطرة الجماهيرية، إلى حقيقة. على الرغم من أن بعض العلماء والفنيين قد تورطوا من دون شك في أسوأ فظائع العالم الحديث (ليست هذه نزعة جديدة؛ عمل كل من آرخميدس Archimedes وليوناردو Leonardo دافينتشي da Vinci على أسلحة الحرب)، فإن جميع مهاراتهم أخفقت في ضمان تقنية للسيطرة على العقل، فضلًا عن الإبادة الجسدية، وهي طريقة مفهومة منذ أن قتل قابيل هابيل، ومع ذلك هناك أمل لمن قد يصبح غاسلًا للأدمغة. بدأ العلم لتوه فقط بحل ألغاز الأدمغة البشرية؛ والمعرفة قوة، على الأقل من ناحية الإمكانية. ربما لا يزال من الممكن العثور على الطلقة السحرية.

سوف أنظر في الفصل القادم فيما يمكن أن تقدمه علوم الدماغ، ربما حتى في المستقبل غير البعيد، لأولئك الذين يحلمون بالتحكم بالعقل.